باب سدرة
(1)

دخلت الشامية منزلها باكية حزينه غاضبه.

سألتها أمها سنية كرشة : ماذا بك ؟ هل ضربوكى فى المدرسة ؟

ليتهن ضربنني، قالت الشامية منتحبة إنما زميلاتى ضحكن من حذائى وقلن إنه حذاء عسكرى الدورية وليس حذاء تلميذة فى إعدادى.

قالت سنية كرشة: عندما يخرج أبوكِ من السجن سوف يشترى لك حذاء بناتيًا .

- ومتى سوف يخرج أبى من السجن ؟

هو محبوس فى قضية تموين لمدة ثلاثة شهور، وبالتأكيد سوف يخرج فى نهاية الشهر، هذا إذا لم يرتكب أي مشاغبات فى السجن إلى نهاية الشهر.

الشامية وهى تبكى بصوت عالٍ : وهل سوف أذهب المدرسة لمدة شهر بحذاء عسكرى الدورية القبيح هذا ؟

سنية كرشة صائحة وقد فقدت صبرها : لا تذهبى المدرسة غدًا وسوف أحاول أن أحصل لك على حذاء من بنت مدام كرستينا اليونانية التى أعمل لديها.

فى الصباح الباكر من اليوم التالى خرجت سنية كرشة من منزلها فى حارة متفرعة من شارع جامع سلطان، أحد شوارع حى باب سدرة الشعبى الفقير بالأسكندرية. واتجهت بهمة ونشاط إلى سوق النصارى فى باب عمر باشا الذى يبعد عن الحارة التى تسكن بها بحوالى ثلاثين دقيقة من السير السريع. ووجدت السوق شبه مزدحم بسكان الحى وغيرهم من أولاد عرب ويونانيين وإيطاليين وشوام وأرمن، الكل يبيع ويشترى احتياجاتهم من خضار ولحوم وطيور وأسماك وخلافه من السوق العامر بكل ما يحتاجه الإنسان من طعام وشراب وغيره. فاشترت طعام الإفطار وكان عبارة عن فول وفلافل وبليلة ولبن حليب وخبز بلدى وبقصمات لأسرة مدام كرستينا التى طلبته منها فى اليوم السابق.

وصلت سنية كرشة لعملها، وكان فى شقة فى إحدى العمارات القديمة على ناصية

السوق وشارع العطارين، وبعد أن خرجت إلينى إلى مدرستها. وقبل أن يخرج أبوها الخواجه زخارى مع مدام كرستينا لمحل القمصان والروائح والّلوازم الحريمى الذى يمتلكانه فى المنشية الكبيرة.

بعد أن تناول الجميع طعام الإفطار شكرت مدام كرستينا سنية كرشة وقالت لها : عليك الذهاب لمنزلك بعد عملك اليومى المعتاد وبعد إطعام إلينى عند عودتها من المدرسة، لأنى أنا وزخارى سوف نتأخر فى العمل اليوم.

شكرت سنية كرشة مدام كرستينا وقالت فى حياء وصوت خفيض : هل لديك حذاء بناتى قديم لابنتى الشامية كى تذهب به إلى المدرسة ؟

ليس عندى حذاء يناسب الشامية ونظرت حولهما فلم تجد أحدًا يتابع حوارهما فأعطت سنية بعض النقود وقالت لها اشترى حذاء جديدًا للشامية.

(2)

رجعت سنية كرشة لمنزلها بعد صلاة العصر بقليل لتجد ابنتها الشامية وقد احمرت وجنتيها وعينيها من كثرة البكاء.

فصاحت لماذا تبكين ؟ لقد قلت لك إنى سوف أحضر لك حذاء بناتيًا.

إننى أبكى لأنك سوف تحضرى لى حذاء إلينى بنت مدام كرستينا وهو قديم أيضاً، ولا يقل سوءًا عن حذاء العسكرى الذى أستعمله الآن.

نظرت سنية كرشة إلى ابنتها بحنان وقد هالها احمرار عينيها الجميلتين واكفرار وجهها الأبيض المشرق، وقد أطلقت سنية اسم الشامية على ابنتها عند ولادتها لأنها تشبه كاملًا أباها الذى يشبه أولاد الشوام الذين يتميز معظمهم بالملامح الأروبية .

كفاية بكاء فسوف أشترى لك حذاء جديدًا.

قفزت الشامية على أمها تقبلها وتصيح : صحيح يا ماما هل سوف تشترين لى حذاءً جديداً ؟

نعم سوف اشترى لك حذاءً جديداً وعليك أن تغسلى وجهك وتستعدى للخروج معى لشراء حذاء يعجبك .

تهيأت الشامية للخروج مع أمها وهى تطير فرحا وسرورا، فارتدت فستاناً أحمر بنقاط بيضاء، قد اشتراه لها أبوها قبل دخوله السجن، فهي فتاة جميلة أنيقة بشعرها الأشقر وعيناها الزرقاء ووجها الأبيض فكأنها هند رستم الممثلة الجميلة فى تلك الأيام من مطلع ستينيات القرن الماضى. فظهرت الشامية جميلة جمال أميرات الأسرة العلوية عندما كان يوجد أميرات.

لكن اعترضت أمها على الشبشب التى تنتعله فى قدميها.

صاحت الشامية لكنى لن أنتعل حذاء العسكرى هذا.

لكن منظرك متناقض بفستانك الأحمر الجميل والشبشب فى قدميك.

لكن يا أمى سوف يكون منظرى مضحكًا لو انتعلت هذا الحذاء القبيح مع فستانى الجميل، فإنى أفضل الشبشب عليه.

خرجت الشامية وأمها وسارتا فى شارع سلطان متجهين إلى موقف الترام أمام المدرسة الإيطالى بشارع الخديو .

استوقفهما عم حسين الحلفاوى الحلاق، وكان رجلًا كبير الحجم خفيف الظل مستفسرا عن كامل الجزار أبو الشامية، فقالت له سنية كرشة إنه سوف يخرج من السجن فى نهاية الشهر. وأثناء المحادثه حضر طفلان يتباريان فى قراءة لافتات المحلات .

فقال الطفل الأول للطفل الثانى هل فى إمكانك قراءة هذه اللافتة ؟

فتعثر الطفل الثانى فى قراءة اللافتة وقال : صالون حسين محمد ال... ال... الح.... الح ... وأخيرا قال : هذا اسم سهل جداً وقال بصوت عالٍ... صالون حسين محمد الحلووف !!!

ضحكت الشامية وأمها وبعض المارة، أما عم حسين فغضب لاسمه الجديد، وقرر أن يغير هذه اللافتة إلى صالون حسين محمد فقط وحذف كلمة الحلفاوى.

وفى شارع سلطان كان كثير من أصحاب المحلات والجيران يلقون التحية على سنية كرشة وابنتها الشامية، فقد كانت سنية كرشة معروفة فى الحى هى وزوجها كامل الجزار الذى يذبح الجاموس والخراف فى بيته بالطابق الأرضى خارج المجزر الحكومى ويبيع اللحوم للجيران وأصحاب المحلات فى شارع سلطان وغيره بأسعار أرخص من محلات الجزارة المرخصة. وسنية تبيع الكرشة ولحمة الرأس وبقايا الذبيحة للجيران فأطلقوا عليها سنية كرشة.

وفى ميدان باب سدرة سألت الشامية أمها عن سبب الفتحات الكبيرة فى عمارة قديمة متهدمة فى الميدان ؟

- أبى قال لى إنه كان يوجد فى ميدان باب سدرة مدفع مضاد للطائرات يديره المحتل الإنجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية، وفى أحد الأيام وأثناء هجوم جوى ألمانى نشط المدفع الإنجليزى يقذف الطائرات المهاجمة ويتتبعها بمدفعه وقذف العمارة بالخطأ والتى كانت بين المدفع والطائرات.وكثير من الأهالى قتلوا فى هذه الغارة الجوية بدون ذنب فى تلك الحرب.

وصلت الشامية وأمها لموقف ترام المنشية أمام المدرسة الإيطالى. لكن سنية كرشة عدلت عن ركوب الترام وقالت لابنتها سوف نسير إلى سوق العطارين القريب من هنا لشراء حذائك.

فأحمر وجه الشامية الجميل وبدأت فى البكاء الصامت .

(3)

لماذا تبكين الآن ؟

الشامية لأمها : إننى أبكى لأننى لا أريد الذهاب إلى سوق العطارين حيث الملابس المستعملة والأحذية القديمة.

- لكن يوجد هناك أحذيه بحالة جيدة وأسعار معتدلة.

انفعلت الشامية حزناً وقالت لأمها برجاء واستجداء : لكنك قلت إنك سوف تشترين لى حذاءً جديداً.

نظرت سنية كرشة إلى طفلتها الجميلة بحزن ورثاء وقد كانت تأمل أن توفر بعض القروش إذا اشترت لها حذاء مستعملاً . وفكرت قليلاً وقالت فى نفسها حذاء جديد ليس خسارة فيها فهي تلميذة مجتهدة وتقترب من اكتمال أنوثتها ويكفيها أنها محرومة من أبيها السجين.

ركبت الشامية وأمها ترام المنشية حيث محلات الملابس والأقمشة والأحذية وخلافه. اتجه الترام مسرعًا إلى المنشية وعلى القضيب الموازى كانت ترام آخر متجه للطريق المعاكس إلى المدرسة الإيطالى، وبعدها محطة مصر ثم حى محرم بك أحد أحياء الأسكندرية الأخرى . لكن عند مفترق الطرق فى شارع الأمير عبد المنعم استدار الترام يميناً فى سيره حول ضريح سيدى أبى الدرداء الموجود وسط الطريق بين الترام الذاهب إلى المنشية والترام الآتى منها. فكانت الشامية تفرح عندما ترى الترام دور حول الضريح فتقرأ الفاتحة وتدعو لأبيها أن يفك سجنه.

اشترت سنية كرشة لابنتها الشامية حذاء فرنيه أسود جميلًا ومعه جورب أبيض من معرض هانو، المحل الفاخر الجميل فى المنشية الصغيرة، وأصرت الشامية أن ترتدى الجورب والحذاء الجديدين وتضع شبشبها المتهالك فى صندوق الحذاء الجديد. رجعت الشامية مع أمها وهى تطير فرحاً بالحذاء الجديد كأنها اشترت الأسكندرية بأكملها. وعادت سنية كرشة والشامية إلى شارع سلطان متجهتين إلى منزلهما المتهالك فى حى باب سدرة. وبدأ المارة والباعة وأصحاب المحلات يسترقون البصر إلى الشامية وجمالها وهم يعرفونها منذ طفولتها . لكن الشامية لم تعد طفلة صغيرة بل إنها شابة صغيرة تشبه هند رستم.

ذهبت الشامية إلى مدرستها بحذائها الفرنية الأسود اللامع الجديد، وكانت فى منتهى السعادة والجمال ودخلت المدرسة وقد ظهرت عليها مظاهر النعمة والثقة بالنفس بعد أن تخلصت من حذاء العسكرى الذى كان السبب فى حزنها وبكائها لعدة أيام .

لكن زميلاتها، ومعظمهن من الفقراء، حقدن عليها بسبب حذائها الفرنيه الجديد، وأصبحن يتقولن عليها، وكيف حصلت على هذا الحذاء وبهذه السرعة. وكانت سلوى بنت أم سمير جارتها فى الحارة وزميلتها فى المدرسة أشدهن حقدا على الشامية وحسداً لها بسبب حذائها الجديد وجمالها ونبوغها فى الدراسة. فأشاعت فى المدرسة أن سنية كرشة أم الشامية سرقت الحذاء من الخواجات التى تعمل عندهم غسالة، وأنه من المحال أن تحصل الشامية على هذا الحذاء بنقود أمها خاصة وأن أباها مسجون فى سرقة مواشى وبيع لحوم خارج قانون التسعيرة بالإضافة إلى تجارته فى المخدرات.

ولاحظت الشامية أن زميلاتها يتجنبنها أو يسخرن منها أو من حذائها المسروق كما قالت لهم سلوى.

وفى أثناء مرور الشامية ببعض زميلاتها قالت إحداهن لأخرى :

هل رأيتي حذائى الجديد الذي سرقته أمى من الست الخواجاية ؟ فقهقة بقية البنات ضحكا وهن ينظرن إلى الشامية وحذائها الفرنيه الفاخر.

بدأت الشامية تكره حذاءها الجديد والمدرسة وزميلاتها وخاصة سلوى بنت ام سمير جارتهم . وقد عرفت الشامية من بعض زميلاتها المخلصات أن سلوى هى التى أشاعت أخبار أمها وأبيها فى المدرسة . ولاحظت الشامية أن بعض المدرسين ينظرون إليها بعيون الريبة والحيطة.

(4)

عادت سنية كرشة من عملها فوجدت ابنتها الشامية تنتحب وقد تورمت عيناها بسبب البكاء.

سألت : ماذا حدث ؟

- سلوى بنت أم سمير جارتنا فى الحارة أشاعت فى المدرسة أنك سرقت هذا الحذاء

من الخواجاية التى تعملين عندها، وأن أبى مسجون بسبب تجارته فى المخدرات. وكل زميلاتى يضحكن منى، والمدرسون والمدرسات ينظرون إلى بعيون الريبة والحذر.

اشتاطت سنية كرشة غضباً وخرجت إلى بيت أم سمير ولقنتها هى وابنتها سلوى أصول احترام الجوار بعد أن أعطتهما علقة ساخنة !!! وطلبت منهما أن يتركا الحارة أو يتحملا ما لا تحمد عقباه.

بادرت الشامية أمها. أين كنت يا ماما ؟

- كنت أعاتب أم سمير وابنتها ولن تقول سلوى عليك شيئًا آخر. وكنت أتمنى أن أحضر لك المدرسة والتحدث مع المسئولين لكنى لا أمتلك ملابس مناسبة لهذه الزيارة. فعندما يخرج أبوك سوف يزور المدرسة ويتحدث للمسئولين بها.

فى خلال أيام انتقلت أم سمير وأسرتها إلى سكن آخر فى حى شعبى أخر وهو الباب الجديد. لكن أكدت سنية كرشة عن طريق صديقة مشتركة لأم سمير أنها تعرف مكان سكنها الجديد وسوف تقوم بزيارتها لو تسببت ابنتها فى أى مشاكل للشامية فى المدرسة مرة آخرى.

وفى الأسبوع التالى للعتاب الودى !!! بين سنية كرشة وأم سمير التي تركتها متورمة الوجه والرأس. ذهبت الشامية إلى مدرستها وكان فى انتظارها زميلاتها بخبر مهم وهو أن سلوى قد انتقلت إلى مدرسة أخرى لم تفصح عن اسمها أو مكانها. ابتسمت الشامية للخبر السعيد ولم تقل لهم لماذا سلوى انتقلت إلى مدرسة أخرى .

خرج كامل الجزار من السجن وقد ازداد شراسة ومجونًا وتوحشاً، وهو يطلب من سنية كرشة نقودها القليلة التى تتقاضاها من عملها لدى كرستينا اليونانية لكى يشترى بها أفيونًا ليشبع إدمانه المقيت. وإذا لم يكن معها نقود ينهال عليها ضرباً هى والشامية . تتكور الشامية وأمها باكيات فى جانب من الغرفة الوحيدة لهما، أما الغرفة الخلفية فهى لكامل الجزار وأصدقائه، يتعاطون فيها المخدرات ويتقامرون طوال الليل ويتبادلون النكات التافهة.

سنية لابنتها الشامية : كان نهار أسود يوم خروجه من السجن . ورفعت وجهها إلى السماء وقالت : ربنا ينتقم منك ياكامل يا ابن حنيفة الدلالة.

صاحت الشامية : حرام عليك يا ماما. بابا مريض . ادعى له ربنا يشفيه.

استيقظت الشامية مبكراً لكى تستعد للذهاب لمدرستها وعندما أرادت أن تلبس حذاءها الجميل لم تجده فى مكانه . فصرخت وهى تبحث عنه : ماما هل رأيت حذائى؟

ذهبت سنية إلى الغرفة الأخرى فوجدت كاملًا يغط فى النوم كأنه قتيل.

- أبوك أخذ حذاءك.

- هل أبى سوف يلبس حذائى ؟

- باعه واشترى أفيونا لمزاجه وربنا ينتقم منه.

بكت الشامية بحرقة وحسرة على حذائها الجميل وقالت : كيف أذهب لمدرستى ؟

- أنا ذاهبة لعملى واتصرفى مع المحروس أبوكى!!

(5)

جلست الشامية بالقرب من قدمي أبيها تدعو له بالشفاء وهى تفكر كيف سوف تذهب إلى المدرسة بغير حذاء أو مصروف، وأبوها يغط فى النوم السعيد لا يشعر بشيء من حوله مادام يحصل على الأفيون لكى يسد حاجة إدمانه الملحة. رأت الشامية أن حذاءها الجديد كان نقمة عليها، وأنه سوف يكون السبب فى تركها المدرسة التى بدأت تكرهها بكل من فيها من المدرسين، ونظراتهم لها بعيون الريبة والشك والزميلات الحاقدات عليها بسبب جمالها وتفوقها الدراسى.

رجعت سنية كرشة من عملها منهكة ولكنها سعيدة وهى تحمل حذاء الشامية.

من أين حصلت على حذائى يا ماما ؟

اشتريته مرة أخرى من عم حسين الحلاق. الذى اشتراه من أبيك بنصف جنيه.

لكنى لست بحاجة لهذا الحذاء . فقد قررت عدم الذهاب للمدرسة مرة أخرى. فأنا كرهت هذا الحذاء والمدرسة وكل شئ فيها.

صاحت سنية كرشة: يجب عليك الاستمرار فى الدراسة على الأقل حتى تحصلى على الإعدادية.

- لكنى غير قادرة على الاستمرار فى الذهاب للمدرسة وكل العيون تنظر إلى باستخفاف أو بريبة.

- الفقر ليس عيبًا، وأنا أعمل عملًا شريفًا عند الخواجات أما أبوكى فهو مريض وربنا يشفيه.

- أعرف ذلك. ولست مهتمة بفقرنا، لكن سمعة أبى التى وصلت للمدرسة هى العذاب الذى ليس باستطاعتى تحمله أو محوه مهما كان نبوغى فى الدراسة.

- معظم زميلاتك من الفقراء أو متوسطى الحال، وأنا ممكن أحضر لك أخبار بيوتهن التى لا تسر . ونحن لسنا أول الناس أو آخرهم يقال عنا ما ليس فينا، وربنا ينتقم منها سلوى التى أشاعت أخبار أبيك فى المدرسة.

- ماما لقد كرهت المدرسة والدراسة وكل شئ متعلق بها ولن أذهب للمدرسة مرة أخرى.

- ممكن أنقلك لمدرسة آخرى.

- لقد اتخذت قرارى ولن أتراجع عنه.

نعم يا روح أمك ؟؟!!! القرار هو قرار أمك أو أبيك.

فى هذه الحالة يجب سؤال بابا عندما يستيقظ من النوم.

تراجعت سنية كرشة وقالت : القرار لى وحدى أنا التى أصرف عليك، فيجب أن تستمرى فى الدراسة وأبوكى نايم فى الأفيون نوم. كيف تستشيرين رجلًا مسطولًا فى مستقبل ابنته؟

- أبى له رأى أيضاً .

- إننى أعرف رأيه المدمر، وقد كلمنى عليه من قبل، إنه يريد بيعك بحفنة جنيهات للراجل العجوز الشايب العايب.

- لست أفهم يا ماما ومن هو الشايب العايب هذا ؟

- إنه يريد أن يزوجّك لعم حسين الحلاق الشايب العايب.

- خبر أسود ياماما إنه فى سن جدى ، وله ثلاث زوجات وأولاد وأحفاد كثيرون. كذلك أنا لست فى سن زواج.

- أبوكى قال إنه يمكن الحصول على شهادة من دكتور الصحة تفيد بأن سنك ستة عشر عاما ويجوز لك الزواج.

- أبى يريد أن يبيعنى برخص التراب . حرام عليه.

(6)

استيقظ كامل الجزار حوالى الساعة الرابعة عصرًا وقد بدا عليه الإرهاق، وعيناه حمراوتان ووجهه أصفر كالموتى وقال مزمجرا للشامية وأمها : لماذا هذه الجلبة لست قادرًا على النوم منكنّا .

- أى نوم يا رجل ؟ لقد فات النهار وهذا وقت العصر. يجب عليك أن تعمل وتحضر لنا نقودًا نعيش منها.

- إننى أسأل لماذا هذه الجلبة ولم أسأل عن حالى ؟

قالت سنية كرشة وهى محبطة الأمل من الشامية وأبيها المسطول ليل ونهار: ابنتك لا تريد الذهاب إلى المدرسة.

نظر كامل إلى ابنته كأنه يراها للمرة الأولى وفكر قليلاً وابتسم ابتسامة شيطانية. ثم زمجر وقال غاضباً:

- أنا لن أسمح لابنتى أن تذهب للمدرسة فى هذا السن. لقد كبرت والناس يعتقدون أنها سوف تعمل وتطعمنى عندما تنتهى من دراستها تلك. وأنا موافق على عدم ذهابها للمدرسة التى أتت إلينا بالمشاكل .

امتنعت الشامية عن الذهاب إلى المدرسة لكنها احتفظت بحذائها الفرنية فى مكان أمين، وتنظر إليه من حين لآخر بحب وامتنان على الرغم من أن هذا الحذاء قد تسبب لها بكثير من المشاكل وتسبب فى تركها الدراسة.

مرت أسابيع وكامل الجزار يتودد لزوجته وابنته يحاول إقناعهما بأن مصاهرة عم حسين الحلاق فيها كل الخير.

قالت سنية : ما هو الخير الذى تتكلم عليه ؟ هل تقصد ثمن الأفيون الذى تحصل عليه منه ؟ هذا راجل خبيث يريد شراء ابنتك بثمن الأفيون.

قال كامل الجزار وهو متحفز مسرور: سوف يشاركنى في شراء أربعة عجول لذبحها وبيعها والمكسب مشاركة الثلثان لى والثلث له.

- إننى لا أصدق هذا الحلوف العجوز الخبيث، ولن أسمح لك أو له بتدمير مستقبل ابنتى.

- الشامية ابنتى أنا كذلك، وأنا رجل البيت والكل يجب أن يسمع كلامى.

- وهل المساطيل مدمنو المخدرات رجال بيوت ؟

قرر كامل المتهالك صحياً والمترنح من الأفيون أن ينهال ضرباً على سنية كرشة ويعرفها من هو رجل البيت.

لكنها كانت أسرع منه وتناولت قبقاباً خشبيًا ثقيلًا وضربته على رأسه فتهاوى على الأرض فاقد الوعى.

سمعت الشامية الجلبة فهرعت لمصدرها فوجدت أباها مفترش الأرض لا يتحرك.

قالت سنية كرشة : أبوكى ماشى مسطول، لا يرى أمامه فاصطدم فى باب الغرفة فسقط مغشياً عليه.

(7)

فى اليوم التالى استيقظ كامل الجزار وهو لا يتذكر شيئًا من أحداث البارحة لكنه يتحسس رأسه التى تؤلمه بما فيها من أورام لا يعرف من أين أتت أو كيف حدثت. فقال لسنية : رأسى تؤلمنى يجب الذهاب للمستشفى.

بالتأكيد سوف يحولك الطبيب إلى مستشفى السجن بما أنك خريج حديث . وسوف يعرفون فى السجن أنك رجعت للأفيون مرة أخرى.

خلاص... لن أذهب إلى أى مكان وإن شاء الله سوف أموت هنا وأنت المسئولة.

- لن يموت أحد هنا إلا أنا منك ومن المحروسة بنتك.

بدأت سنية كرشة تفكر فى مستقبل الشامية، وقررت أن تبعدها عن أبيها الذى يريد بيعها كزوجة لأى حلوف يعطيه نقودًا لشراء الأفيون. فأرسلت خطابًا لأختها فى بلدة أبو حمص التى تبعد عن أسكندرية حوالى ساعتين بالقطار. وأخبرتها أن الشامية امتنعت عن الدراسة بموافقة أبيها.

بعد عدة أسابيع حضرت أخت سنية كرشة من أبوحمص ومعها ابنها لخطبة الشامية له.

قالت الشاميه لأمها : هذا العريس أكبر منى سنًا.

- هذا عريس محترم وعمرة 24 سنه فقط وقد انتهى من الخدمة العسكرية ومعه رخصة سواقة عمومى، ويعمل عملًا شريفًا ويسوق سيارة نقل ومرتبه كبير.

- هو أكبر منى بكثير يا ماما. وبدأت الشامية فى البكاء.

- هل هو أكبر من الحلوف عم حسين الحلاق ؟ الذى يكبرك بأربعين سنة أو أكثر، أما أبن خالتك يكبرك بتسعة سنوات فقط.

- لكنى لم أوافق على عم حسين .

- مادام أبوك يراك أمامه سوف يجد وسيلة لبيعك لهذا العجوز الخبيث المتصابى فى مقابل بضعة جنيهات لكى يشترى بها الأفيون.

استمرت الشامية فى البكاء وقالت : أبى وأمى يشتريان ويبيعان فيّ.

- لا تبكى يا روح أمك سوف أزوجك عريسًا حراميًا مثل أبيك.

- أبى ليس حراميًا إنما الحكومة هى التى تتعقبه !!!

- الحكومة ليس عندها مساطيل وحرامية غير أبو الشامية كامل الجزار !!!

رجعت أخت سنية كرشة وابنها إلى أبو حمص بدون إعلان إتمام الخطوبة .

أحضر كامل الجزار خروفًا مسكينًا متهالك الصحة مثله وقال لسنية كرشة :

هذا خروف أبن ناس، واشتريته بسعر ممتاز، وسوف أذبحه بعد أيام من العناية به وتسمينه قليلاً.

- وماذا تريد منى أن أعمل ؟

- عليك بإطعامه جيداً وفى إناء نظيف، لأن نفسه عزيزة ولا أريده أن يفقد شهيته.

- ذبح كامل الخروف وبعد سلخه وتنظفه غمس كامل قطعة صغيرة من الخشب فى حبر أزرق ومر بها على جسد الخروف عدة مرات فى أماكن مختلفة، فظهر كأنه مختوم من المجزر الحكومى.

كسب كامل الجزار بعض الجنيهات من بيعه للذبيحة، وبعد تسديد ثمن الخروف أنفق الباقى فى شراء الأفيون .

ومرت أيام من المشاجرات المستمرة بين كامل وزوجته وابنته غالباً بسبب عرض عم حسين الحلاق .

وفجأة سد باب البيت شاب طويل القامة عريض المنكبين وسيم الطلعة أشقر الملامح فى ملابس بلدية جديدة، ويشبه إلى حد كبير كامل الجزار فى شبابه ويحمل فى ذراعة سلة بها بعض الفواكه والملابس.

(8)

تعرف عليه كامل من أول وهلة، فوقف مرحباً فهو من أبناء عمومته فى رشيد وقد توسم فيه بعض النقود لشراء الأفيون.

قال كامل مرحباً : ألف مرحباً بك فى أسكندرية وباب سدرة . وكيف أحوال الأهل فى رشيد.

قال الضانى، وهو اسم الشهرة أما اسمه الحقيقى فهو توفيق خليفة : كلنا بخير يا عمى، والجميع يرسلون إليك السلامات . وقد حضرت إلى الأسكندرية لمدة يومين فى مهمة صغيرة.

يا ألف مرحب برشيد وكل أهلها. سحب كامل ضيفه الجديد، أو الفريسة الجديدة، إلى الغرفة الخلفية وقال له:

قولى الحقيقة هل أنت هارب من البوليس أو ثأر أو الخدمة فى الجيش ؟

فقال الضانى آسفاً : هارب من الزواج الذى تريد أن تفرضه عليّ أمى من بنت أختها العانس والتى تتدعى أنها تمتلك عشرة أفدنة زراعية.

هل معك نقود ؟

معى بعض الجنيهات.

يجب أن تودعها معى أحافظ لك عليها من السرقة.

لا تخف فإنى احتفظ بها فى مكان أمين.

مكث الضانى عند كامل وأسرته بضعة أسابيع . وكان ينام النهار ولا يخرج إلا فى الظلام الحالك. وقد استلطف وجوده قريباً من الشامية لكن كاملًا استدرجه ليعرف سر نومه بالنهار والخروج فى الظلام الحالك.

- بعض أصحابى الفلاحين الذين شاركتهم فى تجارة بعض المواشى يبحثون عنى وعن نقودهم التى خسرتها فى التجارة.

- ممكن تعويض خسارتك فى صفقة مواشى أخرى.

- كيف أتاجر وقد خسرت رأس مالى ومال شركائى ؟

- هل تعرف رشيد جيداً وضواحيها وأهاليها و ما عندهم من مواشى ؟

- نعم أعرف كل شبر فيها وكل جاموسة وثور وحمار وجمل وخروف ومعزة.

عليك باستعارة جاموسة أو ثور أو أى نوع من الماشية، وأنا أذبحها ونبيعها والمكسب بالنصف وتسدد نقود أصحابك.

قال الضانى بصوت متحشرج وقد تعثرت الكلمات فى حلقه : لكن هذه سرقة .

- السرقة هى التى حدثت لك وفى تجارتك . فإما أن تعوض خسارتك أو تواجه شركائك وأنت من خسرتهم نقودهم.

وظل كامل يشجع الضانى على أن يعوض خسائرة ويسدد ما عليه لأصحابه.

لكن الضانى كان لديه خطة أخرى.

(9)

عاد الضانى بعد أن تغيب عدة أيام بصحبة أمه وأخته الكبيرة لخطبة الشامية .

لكن الشامية مهرها كبير. قال كامل هذا وهو يضع ساقًا على ساق وفى منتهى العجرفة والترفع.

قالت أم الضانى :عليك سؤال الشامية أولاً والحصول على موافقتها وبعدها نتكلم فى التفاصيل . .

قالت سنية كرشة : ما هى صناعته وكيف سوف يصرف على ابنتى ؟

- هو فلاح ابن فلاح وسوف يزرع خمسة فدادين ورثهم عن المرحوم أبيه وسوف تعيش الشامية فى أحسن حال بين أهلها فى رشيد.

لكن الضانى عنده مسئوليات أخرى يعرفها هو .

أمى تعرف قصة هذه الديون وسوف أقابل أصحابى وأتفاوض معهم على حل يرضى الجميع. المهم أن نقرأ الفاتحة.

تحدثت سنية مع الشامية فى الغرفة الخلفية عن الضانى وطلبه ليدها فوافقت على الفور.

- الضانى فلاح ابن فلاحين ولهم طباع غيرنا فى الأسكندرية.

- لكنه يملك أرضًا وليس أجيرًا وسوف أتعلم طريقتهم فى رشيد.

- أنك توافقين عليه لأنه يشبه أباك.

- ماما لا تحرجينى والفرق كبير بينه وبين عم حسين.

- وهل نفس الفرق بينه وبين ابن خالتك ؟

- الضانى أصغر من ابن خالتى ويملك خمسة فدادين وابن خالتى لا يملك إلا رخصة سواقة عمومية ولا تحرجينى أكثر من ذلك.

ذهبت الشامية إلى الغرفة الأمامية لمقابلة العريس وأهله التى تعرفهم جيداً عندما كانت تزور رشيد مع أبيها وهى صغيرة.

كان فى الغرفة أريكتان يجلس على إحداهما الضانى وأمه، وأخته، فجلست الشامية بجانب أمها وأبيها فى مقابلة الضانى وهى تنظر إلى الارض حياء.لكنها بدت أجمل من أى وقت مضى فنظر اليها الضانى بكل الحب والهيام. فلكزته أمه لكزة خفيفة لم ينتبه لها أحد وكأنها تقول له تحشم يا رجل.

قال كامل الجزار : قبل أن نتكلم فى أى تفاصيل والمهر وخلافه فإنى أريد مخالصة بديون الضانى من شركائه. فإن ابنتى لن تتزوج من طريد الدائنين.

قال الضاني: سوف أقابل شركائى قريباً وسوف أحضر لك ما تريد.

بعد ذهاب الضانى وأقاربه قالت سنية كرشة لزوجها : لماذا كل هذه التعقيدات والعجرفة ؟ عليك بتسهيل الأمور؟

كم بنتًا مثل الشامية فى الحارة أو فى حى باب سدرة كله . فهى جميلة ومتعلمة وتعرف القراءة والكتابة. وحسين الحلاق سوف يدفع أى مهر أقول عليه ونقوده جاهزة، أما الضانى فهو شاب صغير تربية أمه بعد وفاة أبيه ونقوده ليست جاهزة.

لكن الشامية موافقة عليه وهذا يكفينا وليست موافقة على الحلوف صاحبك.

غاب الضانى عدة أسابيع وحضر زوج أخته يسأل عليه فى باب سدرة ولم يجده.

وفى اليوم نفسه حضر اثنان من المباحث يسألان عن كامل الجزار.

(10)

أين كامل الجزار ؟ سأل المخبر سنية كرشة.

- لا أعرف ؟

- هل أنت سنية كرشة ؟

- نعم أنا سنية كرشة، هل تريد منى شيئًا؟

- نريد كاملًا فى مسألة ضرورية.

- هل فعل شيئًا خطيرًا يستدعي المخبرين فى البحث عنه ؟

- لم يفعل شيئًا وإنما ضابط المباحث يريده أن يتعرف على شخص فى المشرحة.

انقبض قلب سنية كرشة الفولاذى، وقالت يمكن أن تجدوه جالسًا على القهوة فى أول شارع جامع سلطان.

ذهب كامل إلى المشرحة فى مستشفى الإسعاف بجانب محطة مصر. وكان أحد المخبرين فى استقباله.

السلام عليكم يا حضرة الصول.

عليكم السلام يا كامل – فقد كان كامل معروفًا بين معظم المخبرين فى المنطقه.

- قدمت للتعرف على الجثة التى وجتموها على ترعة المحمودية.

- هل قلبك جامد ؟

- نعم أنا كامل الجزار.

عندما رأى كامل الجثة خار على الأرض مغشياً عليه.

- لقد قلت إنك كامل الجزار فوجدناك كامل الشناوى شاعر أم كلثوم. تمالك نفسك يارجل هل تعرف القتيل ؟

نعم أعرفه إنه ابن أحد عمومتى، وخطيب ابنتى، وأجهش كامل بالبكاء.

كان الضانى مسجى على ظهره فى المشرحة وجهه يتلألأ ولا يوجد أى خدش فى جسمه ما عدا قطع غائر فى خلف رأسه المهشمة.

كامل مستفسراً : من فعل به ذلك ؟

- أربعة من قطاع الطرق هاجموه ليلاً فى طريقة إلى رشيد، وألقوا بجثته فى ترعة المحمودية، وهذاعندما شاهده أحدهم وهو يبيع بعض المصوغات فى زنقة الستات بالمنشية، وقد قبضنا على أحدهم وجارى البحث عن الآخرين.

استطرد المخبر: عليك إبلاغ أهله إذن.

هذه مهمة صعبة علىّ. فعلى الحكومة عمل ذلك. واتركونى فى بلوتى.

أبلغ كامل المسئولين فى المشرحة ببيانات توفيق خليفة (الضانى) وعنوانه وترك لهم مسئولية إبلاغ أهله فى رشيد.

وأستمر كامل فى البكاء والارتعاش بقية الليل . ولكنه يفكر فى الضانى ويلوم نفسه فيما حدث له.

- ماذا سوف أقول للشامية ؟ إننى السبب فى مقتل خطيبها الذى باع مصوغات أمه لتسديد ديونه التى طلبت منه تسديدها قبل إعلان الخطوبة . يا خراب بيتك يا كامل، كل شئ يقع فى يدك أو كل شئ يقترب منك يُدمر.

وقال كامل بأعلى صوته : يارب توبة يارب سامحنى يارب اغفر لى، وحُلْ بيني وبين

الأفيون والمخدرات والخمر. رحمك الله ياتوفيق يا شريف يا ابن الشرفاء يا سيد الرجال. ومازال كامل يهذى ويبكى فى الشارع أمام باب المشرحة حتى الصباح.

وفجأة وجد سنية كرشة أمامه ولأول مرة يصاب بالرعب منها ويخاف أن يخبرها بالخبر الأسود.

ماذا بك ياكامل ؟ سألته سنية.

وقفت الكلمات فى حلق كامل، وقال بحشرجة الموتى : اسألى فى الداخل.

- خبر أسود ماذا يوجد فى الداخل. ودخلت سنية إلى المشرحة وعندما رأت القتيل صدر منها صوت رج المشرحة وما حولها.

(11)

استمرت سنية فى البكاء والعويل طوال الطريق بين المشرحة وباب سدرة، والذى استغرق حوالى ساعة، وهى تسير على قدميها وقد خلعت حذاءها وقابلها بعض أهل الحى وشاركوها البكاء والعويل فى طريقهم للحارة.

لم تقع عينى على شاب فى صحته وطلعته، ربنا ينتقم من الذى فعل به ذلك. قالت سنية وهى تبكى لمن حولها.

وصل الخبر للشامية والحارة قبل أن تصل إليها سنية كرشة.

انهارت الشامية تبكي وتندب حظها السئ.

بعد الجنازة المهيبة فى رشيد التى أقيمت للضانى اختفى كامل الجزار لعدة أسابيع ولم تهتم سنيه كرشة لاختفاء زوجها

- أين أبى يا ماما ؟

- الله لا يرجعه.

- حرام عليك ياماما.

إنه سبب كل مشاكلنا.

وبعد عدة أيام طرق الباب بعض الرجال يحملون كامل الجزار وهو بين الحياة والموت ووجهه أصفر كالموتى، عيناه غائرتان، وملابسه متسخة من نومه فى الطرقات.

قال أحد الرجال: وجدناه يحتضر على الرصيف فى شارع جامع سلطان وتعرّف عليه بعض الصبية فحملناه إلى هنا.

صرخت الشامية : بابا حبيبى سلامتك من الموت.

وحملت سنية كرشة كامل الجزار بين ذراعيها القوية كأنها تحمل طفلًا رضيعًا وأخذته إلى الحمام وغسلته جيداً وألبسته ملابس نظيفة.

سامحينى يا سنية يا أصيلة يابنت الأصول، سامحينى يا شامية . قال هذا كامل وهو لا يتمالك نفسه من البكاء. أربطونى فى السرير حتى لا أذهب لشراء الأفيون. وإذا سأل على أصحابى قولى لهم أنى فى رشيد.

ظل كامل الجزار ممتنع عن الطعام وهو مقيد فى السرير بالحبال التى يستعملها فى تقيد المواشى عند ذبحها، كان جلده ينزف دمًا من أثر الحبال، فيصيح كأنه ثور أعد للذبح.

وظلت الشامية تبكى خطيبتها، وكامل أبوها يبكى الأفيون وسنية كرشة تذهب لعملها فى الصباح وفى المساء تضمد جراح كامل وتمسح دموع الشامية وهى تندب حظها مع ابنتها وزوجها.

وبعد عدة أسابيع تماثل كامل للشفاء وأصبح يأكل بشهية الشباب، وامتلأ جسمه بالعضلات بعد أن كان جلدًا على عظم، واحمر وجهه بعد كان أصفر اصفرار الموتى. وذهب للعمل فى محل فاخر للجزارة فى سوق النصارى بباب عمر باشا.

وصل خطاب من أخت سنية كرشة فى أبوحمص تدعوها هى وأسرتها لزفاف ابنها.

وقف الثلاثة بمحطة مصر فى انتظار قطار أبوحمص يحدوهم الفرح بشفاء كامل والحزن العميق بمقتل الضانى، وفجأة صاحت إحدى السيدات فى الشامية وأبويها !!!

(12)

أين أنت يا شامية ؟ سألت السيدة مديحة وكيلة المدرسة التى كانت تتعلم فيها الشامية واستطردت لقد أرسلت لك خطاب فصل بعد خمسة عشر يومًا من انقطاعك عن الدراسة ولم يتسلمه أحد فى منزلك، وأُعيد الخطاب إلينا. لقد كنتِ تلميذة متفوقة فلماذا انقطعتِ عن الدراسة ؟

صاح كامل الجزار : لقد كانت تراعينى أثناء مرضى. وسأل راجياً : هل ممكن أن تعود الشامية للمدرسة ؟

نظرت سنية كرشة إلى زوجها بتعجب لكنه لم يعرها اهتماماً.

ممكن جداً. هل أنتم مسافرون ؟

نعم مسافرون إلى أبوحمص لمدة يومين .

عليك الحضور مع الشامية وسوف أجد لها وسيلة للعودة للمدرسة، فهي تلميذة مجتهدة ولابد من تشجيعها لتواصل تفوقها.

عادت الشامية للدراسة بعد أن دفع أبوها بعض المصاريف والدمغات واستوفى بعض الاستمارات من مصلحة السجون وطبيبها . عادت الشامية إلى مدرستها مع أبيها وهى فخورة بأبيها الذى كان فى منتهى الوسامة والصحة والعافية، وكذلك فخورة بحذائها الأسود الفرنيه الجميل. وعندما رأى بعض زميلاتها ومدرسيها كامل الجزار بما له من حضور وحصافة وحلو الحديث امتنعوا عن النميمة بشأن الشامية وأسرتها التى اجتهدت لتحصيل ما فاتها من دروس.

تمت

***